مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 15 العدد: 02 السنة 2023 ص 488 - 506

تاريخ الإرسال: 2020/10/01 تاريخ القبول: 2023/03/04
تاريخ النشر: 2023/06/03

التفكيك في النقد المغاربي، قراءة في أعمال محمد بكاي

Deconstruction in Maghreb criticism, Reading in the works of mohammed bekkaye

وسيلة مجاهد، بدرة قرقوى
جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)، wassilasilla94@gmail.com
جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)، badra84.ost@gmail.com

ملخص:

انتقل التفكيك من البيئة النقدية الغربية إلى البيئة النقدية المغاربية، وقد ساهم في هذا التنقل والتلقي عدة نقاد ومترجمين، يعد محمد بكاي واحدا منهم، لذلك سعينا في مقالنا هذا إلى تتبع مسار التفكيك من البيئة الغربية إلى نظيرتها المغاربية محاولين تغطية ظروف استقباله.

لكل ناقد طريقته ووسيلته في التعرف على التفكيك وتلقيه، وقد تمثلت طريقة محمد بكاي في قراءته لأعمال دريدا بلغاتها الأم، ثم التأليف حوله، محاولا منح القارئ والباحث المغاربي زبدة ما توصل إليه من خلال تجربته مع التفكيك. حاول محمد بكاي مقاربة نصوص دريدا والاقتراب منها بوسائلها، فاختار مقولة الشبحية التي شغلت جل فكر دريدا، كنقطة انطلاق، وكخريطة سهّلت عليه عملية التوغل في المتاهة الدريدية.

الكلمات المفتاحية: التفكيك؛ النقد المغاربي؛ محمد بكاي؛ الشبحية؛ جاك دريدا.

Abstract:

The deconstruction moved from the western monetary environment to the Maghreb monetary environment, and several critics and translators contributed to this movement and reception, Mohammed Bekkaye being one of them. Therefore in our article, we sought to trace the path of deconstruction from the western environment to its Maghreb counterpart, trying to cover the conditions of his reception.

Each critic has his own way and means of recognizing and receiving deconstruction, and Mohammed method was to read Derrida's works in their mother tongue, then compose around him, trying to give the Maghreb reader the butter he had reached through his experience with deconstruction.

Bekkaye tried to approach the texts of Derrida and approach them through their means, so he chose the notion of ghostly, which occupied most of Derrida's thought, as a starting point, and as a map that made it easier for him to penetrate into the Druidian maze.

Keywords: Deconstruction; Maghreb criticism; Mohammed Bekkaye; Ghostia; Jacques Derrida.

المؤلف المرسل: وسيلة مجاهد، الإيميل:**wassilasilla94@gmail.com**

1.مقدمة:

لقد تأسّس التفكيك على معرفة جديدة قوامها الترحال، وحتى يتحقق لنا هذا الأخير وجب بداية تحقيق الانفصال عن الأصول والجذور والتراث والهوية، نظرا لكونها مقوّمات الفكر التقليدي، القائم على مبدأ المركزية ومنطق الأحادية والثنائيات الضدية. كما يركز التفكيك على فكرة العبور والتجاوز[1]، وهذا ما يُفسر سبب كسره للحدود وتجاوزها، إذ نجده قد عرف انتشارا واسعا وأخذ أشكالا مختلفة، نظرا لطبيعته الحرباوية.

نريد في هذا المقال الكشف عن محطة من المحطات التي وصل إليها التفكيك، والوصول ها هنا لا يعني الاستقرار والمكوث، بقدر ما يعني التأهب لمغادرة تلك المحطة إلى محطات أخرى جديدة. لن نقوم بتتبع المسار الذي قطعه التفكيك منذ نشأته، وصولا إلى محطتنا المرام تعرية جوانبها تتبعا مفصلا، وإنما سنقوم بوصف المسار وصفا يساعد القارئ على فهم المنطلق والمبتغى، لأننا لا نهدف في مقالنا هذا إلى تكرار ما كُتب عن التفكيك وعن نشأته وانتشاره سابقا في العديد من الدراسات والبحوث، بل نهدف إلى تسليط الضوء على مرحلة تواجده في الحقل المغاربي المعاصر، بالضبط في عالم محمد بكاي. إذ سنسعى لإيجاد إجابات للعديد من الأسئلة والإشكالات، إجابات ليس قطعية إذ لا نجد في عوالم التفكيك إجابات جازمة، بل إجابات نسبية تفجر الكثير من الأسئلة، لكأنّها عبارة عن نسيج من علامات الاستفهام نفكه كي ننسج آخر، لنفكه هو الآخر وهكذا دواليك.

سننطلق في رحلة استكشافية نبحث فيها عن أطياف دريدا في الصرح النقدي المغاربي، بالضبط في الحقول التي زرع فيها محمد بكاي بذور التفكيك، كي نتذوق الثمار التي جناها. وسنعمل على الإجابة عن الإشكالات التالية: كيف كانت ظروف استقبال التفكيك في النقد المغاربي المعاصر؟ وهل أحسن محمد بكاي استضافته في أوساطه؟ هل تأقلم وتناسب التفكيك مع الأجواء النقدية المغاربية، أم ظل غريبا؟

لكي نجيب عن هذه الأسئلة والإشكالات سنعتمد على كل من المنهج الوصفي والتاريخي كي نتبع ونصف الرحلة، لنغطي بذلك ظروف الانتقال وأجواء الاستقبال، لكننا لن نكتفي بالوصف فقط، بل سنستعير من جاك دريدا صاحب مقولة التفكيك، مقولاته ومفاهيمه لنعاين مفهوم التفكيك عند محمد بكاي، ونتابع آثار الرحلة عليه.

1. التعريف بمحمد بكاي:

يُعد محمد بكاي واحدا من الأقلام الشابة، التي راحت تخطو خطوات ثابتة في حقول النقد المعاصر، الحقول الملغّمة بالفلسفة والمتداخلة مع عدة مجالات، كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها. إنّه باحث وناقد متخصص في نقد ما بعد البنيوية وأستاذ يُدرّس في المركز الجامعي بمغنية، في حقيبته النقدية مجموعة دراسات كشفت عن اهتمامه بكل ما يتعلق بما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، فبعد تأليفه للكثير من المقالات المنشورة في العديد من المجلات والمواقع والكتب الجماعية، أصدر محمد بكاي مولوده الأوّل الموسوم ب: أرخبيلات ما بعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية: من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، وقد كان ذلك سنة 2017. ليُشرف بعد ذلك وفي نفس السنة على كتابين جماعيين صدرا في الوقت نفسه، تعلّق الأول بجاك دريدا وقد حمّله العنوان التالي: جاك دريدا فيلسوف الهوامش، تأملات في التفكيك والكتابة والسياسة. ضم الكتاب ثلة من الباحثين المهمين المشتغلين في الفلسفة والنقد المعاصر وفي الترجمة أيضا.

أما بخصوص الكتاب الجماعي الثاني الذي أشرف عليه وحرره، فقد عنونه كالتالي: أهواء بارت ومغامرات البارتية. بعدها بسنة؛ أي في 2018 أصدر مؤلَّفا جديدا، تعلّق هو الآخر بفلسفة التفكيك والموسوم ب: التفكيك وفسيفساء المعنى. ليليه بعد ذلك إصدار آخر اهتم بالدراسات النسوية وتفكيك المركزية الذكورية، يحمل الكتاب الجديد عنوان: جدل النسوية، فصول نقدية في إزاحة الدوغمائيات الأبوية.

بعد هذه البطاقة التعريفية بالنموذج المختار للدراسة في مقالنا هذا، وقبل الانطلاق في رحلتنا الاستكشافية، ومحاولة تغطية ظروف الانتقال وأجواء الاستقبال لفلسفة التفكيك، وجب بداية تقديم عرض مقتضب لهذه الفلسفة الشاغلة لأذهان

الباحثين المعاصرين، والمتوعدة للنصوص الأدبية بالكثير من الضربات المخلخلة لمعمار النص.

2. التفكيك، تأملات في استحالة التعريف:

لقد كان عام 1966 عام حسم في تاريخ النظرية النقدية الحديثة؛ حيث شهد بداية أفول نجم البنيوية، أفول بدأ معه نجم التفكيك يضيء، خاصة بعد انعقاد مؤتمر للعلوم الإنسانية في جامعة جون هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية، والذي عرف مشاركة أقطاب بارزة لطالما مثّلت البنيوية، ككلود ليفي شتراوس ورولان بارت ولوسيان غولدمان ورومان جاكبسون وغيرهم، إلى جانب جاك دريدا أحد المشاركين الشباب، شاب قادم من باريس بنظراته الثاقبة.

لم يدر في خلد الحاضرين أنّ هذا الشاب سيقلب الطاولة على الجميع بعدما قدّم ورقة بحثية بعنوان: البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية، قام فيها بنقد البنية وفكرة الأصل والمركز المرتبطة بها، بعد هذا الحدث لم تعد البنيوية هي نفسها بل وراح حضورها يخفت، في المقابل وجد التفكيك تجاوبا كاسحا خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، مما جعل دريدا ينتقل من فرنسا وصرامتها إلى رحابة جامعة ييل الأمريكية yale [2] من هناك بدأ التفكيك رحلته في التفشي والانتشار في مختلف بقاع المعرفة، على يد مجموعة من الباحثين الذين تبنوا شتاته كبول ديمان هليس ميلر، جيفري هارتمان وهارولد بلوم.

بعدما كانت الحركة الانتقالية الأولى التي عرفها التفكيك، قد انطلقت من فرنسا متجهة نحو الولايات المتحدة الأمريكية، حيث حمل دريدا بذور فلسفته وراح ليغرسها هناك، بعدما لم تناسبها تربة فرنسا الثقافية؛ ولو أنها التربة التي أفرزت التفكيك، لكنها لفظته ونبذته لأن مزاجها الثقافي لم يناسبه ولم يتوافق معه، فهو مزاج شكلته قوى التجانس والتوحد، وهيمنت عليه تلك القوى لفترة طويلة من الزمن. بما أنّ

التفكيك قائم في أساسه على الثورة على القيم، ورفض التقاليد وتجاوز فكرة الأصل، فإنّه من الطبيعي أن يلقى معارضة شديدة من قبل الثقافة الفرنسية، خاصة وأنّه قد سعى إلى التشكيك في ثبات قيمها، والنسف بمبدأ الوحدة والتجانس والتناسق.

حمل دريدا حقائب فلسفته وقرر الهجرة إلى إقليم آخر غربي لكنه رحب يتشاكل مع ما يدعو إليه[3]. كانت أمريكا المحطة الأولى المستقبلة لفلسفة التفكيك لكنها ليست الأخيرة إذ نجده قد انتقل من محطة إلى أخرى، ومع كل محطة كان التفكيك يتعدد ويتجدد، فأصبحنا لا نتحدث عن تفكيك بصيغة المفرد بل بصيغة الجمع؛ تفكيكات، فكل ناقد أو فيلسوف تبنى هذه الفلسفة كان يرى التفكيك من زاويته، ويحاول فك طلاسمه بطريقته الخاصة وبفهمه الخاص، ولو أن التفكيك فلسفة لا تبتغي الفهم ولا تلبس ثوب الوضوح.

في تغيير المكان كان يجد التفكيك نوعا من التمكين، والمكنة في فرض سطوته، ولفت الأنظار إليه وجذب الكثير من الاهتمام. اهتمام جاء نتيجة الانبهار تارة، والفضول تارة أخرى، وأحيانا كان يأخذ شكل النبذ والرفض والهجوم الشرس على مقولاته وأفكاره. لم تكن الرحلة مكانية فقط بل ومعرفية أيضا؛ إذ نجده قد انتقل من حقل معرفي إلى آخر، تماما كانتقاله من الفلسفة إلى النقد الأدبي، انتقال سلس ومرن، وأينما كان يحط رحاله كان يُحدث نوعا من الجلبة بل ويقلب الطاولات ويخلخل المراكز والقيم والأفكار الراسخة. وهذا راجع إلى طبيعة التفكيك المرنة والحركية التي لا تعرف الثبات ولا الاستقرار، كما لا تعرف شكلا واحدا بل متعددا وزئبقيا لا يمكن القبض عليه، أو الزج به في قالب معين.

بعد هذه الإطلالة الضيقة على الحقبة التاريخية التي ظهر فيها التفكيك والتي بدأت فيها رحلته اللانهائية جاء دور طرح السؤال عن ماهية التفكيك، سؤال طرحه الكثيرون من قبل على أنفسهم وعلى دريدا نفسه لكن ما من إجابة، وقد سبق

وذكرنا أننا لن نعثر في صرح التفكيك عن إجابات بل عن أسئلة أخرى جديدة، إذ لا وجود لإجابات حاسمة ونهائية في رحاب التفكيك.

هذا الأخير ليس بمنهج ولا نظرية، ولا يمكن اختزاله أو حصره في خانة معينة. عندما حاول دريدا تجاوز سؤال الماهية والتعريف، قدم تعريفا لا يقدم شيئا بل يزيد من لبس المفهوم ومن ضبابية المصطلح، الذي كان شائعا بمعناه السطحي وشائكا بمعناه الدريدي العميق واللامحدد.

إنّ التعريف المقدم من طرف دريدا كان جزافيا ومتهورا، وجاء عبارة عن محاولة خطيرة تروم المخاتلة والمخادعة، إنّه لمعان برق سرعان ما يختفي، تعريف يقول كل شيء بامتناعه عن قول شيء. غامض ومراوغ، هوامه الحيرة، مجرد مجاز نحو المستحيل، حتى أنّه في إحدى محطاته قال جاك بأن التفكيك عبارة عن تجربة المستحيل، إذن فعلى من يريد اقتحام هكذا مجال أن يكون مستعدا لتجربة هذا المستحيل، بل وأكثر من ذلك، تحويله إلى الممكن. فالمستحيل ليس سوى ممكنا لم يحن موعده بعد.

ينطوي المستحيل على الممكن، والاستحالة Impossibilité عبارة عن متردّد لا يقيني Indécidable لأنّها تؤدي وظائف متباينة: استحالة بمعنى ما هو غير ممكن وغير متوقع، أي لا واقعي. واستحالة بمعنى ما يقع على سبيل التحوّل والانتقال من طور إلى آخر Transmutation . نجد دريدا يكتب Im – possible بفصل البادئة In عن مفردة Possible، فيصبح المصطلح يعني ما هو ممكن من الداخل، على اعتبار أنّ البادئة In تدلّ على ما هو داخل الشيء، ولا تدلّ على النفي والسلب فقط[4]، إذن لا شيء مستحيل في داخله، بل هناك دائما تحوّل داخلي يُحوّل المستحيل إلى ممكن.

الكائن في الداخل Le dedans يحتوي على المعنى المنعكس في الخارج Le dehors ، يُقصد بالخارج القصد المُعبّر عنه أو ما قيل في النص، والقصد يقتضي حضور الوعيّ، لذلك فالخارج ما هو إلا الوعي لكن كحضور، يتجسّد هذا الوعي في الدال المُعبّر عن حقيقة خارجية، في حين يُعبّر الداخل عن حقيقة باطنية يجسّدها المدلول، أي ما أُرِيد قوله لا ما قيل في النص. أو ما يُطلق عليه بإرادة القول[5]. إذن فدريدا أراد أن يُعرّف التفكيك، لكنه لم يفعل لأنّ مصطلح التفكيك ذو طابع جواني، باطني وتكتوني، يلزمه الكثير من الحفر حتى نصل إلى روحه ونلامس كنهه. وهو أيضا ذو طابع تحوّلي مما جعل عملية تحديد مفهوم له ومحاولة قولبته مستحيلة.

التعريف المنطوي على اللاتعريف والذي قدمه جاك دريدا كان كالتالي:"أكثر من لغة " مفاجأة مبهمة قطعت كل الأطماع المتكررة في إيجاد تعريف دقيق، وبذلك يكون التفكيك قد أفلت من الانغلاق الفكري والدوغمائي، الحاصر له في فئة معينة أو بيئة محددة أو فكرة مضبوطة. احتمل هذا التعريف المبهم إمكانات دلالية وحمولات رمزية، وانفتح بفضل ذلك على التعدد والتبعثر والتشظي والتشتت أيضا، فالعبارة جاءت منطوية على طيات مجازية[6] تتوافق وطابع التفكيك التكتوني.

في حقول النقد عُدّ التفكيك إستراتيجية قرائية، يقتحم بها الناقد المعاصر النصوص الأدبية وغيرها من النصوص والخطابات. استراتيجية تروم خلخلة النص وجعله يلعب ضد نفسه، فلا وجود للمؤلف بل للنص فقط، حيث يقول صاحب التفكيك: لا شيء خارج النص. وهو بذلك يصرح بأنّه عالم في حد ذاته، لا يحتاج إلى مؤلفه كي يعبر عن نفسه. بهذا نجده قد فتح بابا أمام تعددية التأويلات والقراءات بتعدد القراء والمتلقين، واضعا المعنى في مآزق التعدد والتشتت بل والتلاشي أيضا، فالمفكك لا يهمه المعنى السطحي بقدر ما يهتم بالمعنى العميق أو

المسكوت عنه. إذا كان التفكيك يتعامل مع النص على هذا النحو، فإنه يتعامل كذلك مع نفسه، فهو بغموضه يفتح المجال أمام تعددية التأويلات وتشتتها حد التلاشي. مما يجعل عملية ضبطه ضربا من المستحيل إدراكه.

عند العودة إلى جذور مصطلح إستراتيجية Stratégie لدريدا نجد بأنه مأخوذ من القاموس العسكري، ومن ثمّة الإستراتيجية كسلوك عسكري يعتمد على المراقبة، والتخفي والترصد للحركات التي يقوم بها العدو، وانتظار الوقت المناسب للرد، غير أنّ دريدا استعمل مصطلح إستراتيجية في مقاربة النصوص والتعامل معها عن طريق الحنكة و المهارة و اللعب الحر على مستوى اللغة وبالتالي فهو إستراتيجية في القراءة تستهدف النص و تجند الحنكة والمهارة في كلمة إستراتيجية Stratégie وفي مفردة حنكة Stratégéme يمكننا استشفاف عنصر الطبقة Strate كاستعارة جيولوجية في التعبير عن تلافيف النص و تضاريسه أو وجوه دلالاته و عتبات تأويلاته[7].

تلك الطبقات الجيولوجية معروف عنها حركتها الدؤوبة، وتحولها الدائم إلى جانب كونها متوارية عن الأنظار، مغمورة وعميقة وغامضة، وذلك ديدن التفكيك. بما أنه متواري يروم التخفي وموغل في ضبابيته، فإنّ كل محاولة لفهمه هي إساءة له ولطابعه. لا ينبغي أن نفهمه، يكفينا فقط خوض غمار تجربة المستحيل معه، والاستمتاع بالتجربة، لأنها تجربة تعتمد على الذكاء، إنها لعبة خطيرة لكنها مسلية بخطورتها.

3. انتقال التفكيك إلى الخطاب النقدي المغاربي وظروف الاستقبال:

بسبب المثاقفة والترجمة والاحتكاك بالغرب، خاصة احتكاك المغرب العربي بالثقافة الفرنسية، نظرا للعوامل التاريخية المعروفة وأولها الاستعمار، فُتح مجال الحوار الثقافي مع الآخر، وتبادل الأفكار والنظريات والفلسفات، إذ من

الطبيعي أن يكون هناك نوع من التأثير والتأثر، ومن الطبيعي أن تترك شهرة جاك دريدا أثرها في النقاد المغاربة الذين استنبطوا من قبل مناهجهم النقدية المعاصرة من فرنسا، بعدما كانوا يأخذونها من المشرق العربي.

كانت بداية انتقال التفكيك إلى العالم العربي مشرقية، ويُرجح الكل إلى أنّ أول من أشار إليه كان عبد الله الغذامي، ثم بعد ذلك بدأ يتوغل في الأوساط العربية وصولا إلى المغرب الكبير، هذا الأخير الذي لم يكن غريبا عن جاك دريدا الفيلسوف الفرنسي الذي ولد ونشأ في الجزائر، إذ يمكننا أن نقول بأنه مغاربي أيضا. بل وأكثر مغاربية من غيره، وكان ذلك بإقرار شخصي منه.

منذ الثمانينيات بل وقبلها أيضا بدأ التفكيك يخطو خطواته ويتوسع في المغرب الكبير، توسع شهده من قبل في العالم العربي، إذ حظي بالكثير من الدراسات والأبحاث والمجلات التي عُنيت به وحاولت نشره، وإن كانت تلك البحوث قد اقتصرت فقط على الجانب النظري، إذ لا نزال لحد الساعة رغم تراكم الدراسات والترجمات حوله، نحاول التعريف به وكشف جوانبه المخفية، في الوقت الذي عرفت الممارسة التطبيقية نوعا من الشح والقلة الراجعة لطبيعته الزئبقية.

قلنا بدأ مسار التفكيك في المغرب العربي منذ الثمانينيات، وقد كانت البداية مع مجلات وجمعيات نذكر منها على سبيل المثال: رابطة كتّاب الاختلاف في الجزائر، إلى جانب مجلة مواقع التي أسسها فريد الزاهي عام 1992، وقام فيها بترجمة العديد من حوارات جاك دريدا.

مع التسعينيات زاد الاهتمام به وبفلسفة الاختلاف، فعمل البعض على ترجمة بعض أعمال جاك دريدا، في حين قام البعض بإعداد كتب ومؤلفات ومقالات حوله، وبدأت تعقد ندوات تتطرق لأفكار دريدا. لعل من أهم المشتغلين والمهتمين بهذا الحقل نذكر على سبيل المثال لا الحصر: عبد الكبير الخطيبي الذي كان

صديقا لجاك دريدا، إلى جانب محمد نور الدين أفاية، عبد السلام بن عبد العالي فتحي التريكي، عبد الملك مرتاض، محمد أركون[8]، بختي بن عودة، محمد شوقي الزين، ناجي العونلي، وصولا إلى محمد بكاي.

لقد عاد التفكيك إلى المغرب العربي، وشهد نوعا من الاهتمام الذي جاء على شاكلة ترجمات، دراسات فلسفية وأخرى نقدية، ممارسات على قلتها، وتنظيرات. وقد تباينت حوله الآراء من منبهر مؤيد، وآخر معارض نظرا لجذور التفكيك اللاهوتية، إلا أنّ هذا الأخير استطاع بشكل أو بآخر التعايش في الساحة النقدية المغاربية، وأخذ حيز من خطاباتها، ولو كان ذلك الحيز في أغلبه نظري، يحتاج إلى دعمه بالكثير من الممارسات التطبيقية.

4. محمد بكاي وقصته مع التفكيك:

اكتشف محمد بكاي كأغلب المتلقين التفكيك عن طريق الدراسات التي كُتبت حوله، والكتب التي تُرجمت لجاك دريدا، وبحكم تخصصه الجامعي المتمثل في نقد ما بعد البنيوية، فإنّ التعرّف على التفكيك لم يكن عملية صعبة أو مستحيلة. بعد هذا الاكتشاف تألق الفضول في عينيه، إذ لم تعد الدراسات والترجمات المكتوبة بالعربية ترضي شغفه وتروي ظمأه، فراح يكتشف ويستكشف التفكيك في لغته الأم ومواطنه الأصلية، حيث قرأ أعمال جاك دريدا بالفرنسية وحتى بالإنجليزية، فسعى؛ وهذا راجع إلى امتلاكه للغة الأجنبية وتمكنه منها، إلى انتزاع المفاهيم والمعلومات من منابتها.

بدأت علاقة محمد بكاي مع التفكيك في 2010، إذ لم يقتصر اهتمامه به على القراءة فقط بل انتقل إلى الكتابة حوله، فكتب عدة مقالات شكّلت البداية والانطلاقة، نُشرت تلك المقالات في العديد من الكتب الجماعية ككتاب: جاك دريدا ماذا الآن ماذا عن غد، الحدث، التفكيك، الخطاب، الذي أشرف عليه محمد شوقي

الزين، وفي العديد من المجلات، كمجلة فصول النقدية وغيرها. جُمعت بعض تلك المقالات في كتابه الأوّل الصادر سنة 2017 والذي عنونه ب: أرخبيلات ما بعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية، من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، ثم تلاه كتاب جماعي أشرف عليه بعنوان: دريدا فيلسوف الهوامش، حاول فيه تقديم كتاب جامع، يعد مرجعا لكل باحث ضل طريقه في دروب التفكيك ومتاهاته. ثم أصدر كتابا بعنوان: التفكيك وفسيفساء المعنى.

لم يكن تلقي محمد بكاي للتفكيك ولفلسفة جاك دريدا تلقيا عاديا، بل كان مسكونا بأشباح جاك دريدا المطاردة له أينما ذهب وارتحل، ويظهر ذلك في كل ما يكتبه، إذ يحضر جاك دريدا في مقالاته ودراساته وحتى في تحليلاته للنصوص والأفلام وللأحداث اليومية. توغل بعيدا في متاهة التفكيك، إذ لم يكتف بالتنظير له في كتبه، بل بمقاربته مقاربة متشبعة بمقولات التفكيك، وآرائه النقدية والفلسفية. فمحمد بكاي كان يكتب عن جاك دريدا بأسلوب جاك دريدا، ويتقرب منه بوسائله.

5. تجليات التفكيك في أعمال محمد بكاي:

يرى محمد بكاي أنّ نصوص جاك دريدا عبارة عن أرضية تحتشد فوقها الأضداد وتتواطؤ فيها النقائض والمقلوبات، مما يجعلها؛ أي النصوص، تتحوّل إلى حلبة مصارعة، تتصارع فيها التأويلات وتتشابك فيها الدوال، لذلك نجده ينادي بضرورة احتراز القارئ من هكذا نصوص ملغمة وملغزة، كما يدعو إلى وجوب امتلاك العدة اللازمة قبل الشروع في مغامرة القراءة[9].

بعد امتلاكه للعدة اللازمة طرق محمد بكاي أبواب التفكيك ودخل متاهته من باب يُفتح على كل جوانب التفكيك، إنه باب الشبحية، المقولة التي من خلالها عمل جاك دريدا على مطاردة النصوص وتعرية أوهامها ونسف بداهاتها. لقد اختار جاك دريدا الطيف أو الشبحية نظرا لطبيعتها الوسطية، فالطيف كامن بين الواقع

والمثال، بين هذا وذاك، ففيلسوف الهوامش لا يتعامل مع أفكاره بعدّها مفاهيم بل بعدها أطياف بينية، تحتمل الفكرة ونقيضها، في تناغم وانسجام[10]، هذا الطيف هو الذي جمع بين الفلسفة والأدب وبالتالي النقد الأدبي.

قدم محمد بكاي دراسات حول مقولة الشبحية ومفهوم الطيف عند جاك دريدا، هذه المقولة التي عدّت الأقل دراسة من بين مفاهيم دريدا ومقولاته، وقد تجلّت عنايته بتلك المقولة المهمشة في الدراسات المهتمة بفلسفة فيلسوف الاختلاف منذ البداية؛ أي منذ اللحظة التي استقبل فيها أفكار دريدا وتلقاها. فتلقيه لأفكاره كان تلقيا شبحيا، عن طريق استدعاء شبح دريدا الكامن والمندس في كتبه، محاولا استنطاقه وكشف مكنوناته.

6. محمد بكاي ومقولة الشبحية:

في كتابه التفكيك وفسيفساء المعنى، أعاد لنا محمد بكاي دريدا، وبعثه من جديد في شكل طيف يحضر دون حضور كامل أي في أوجّ غيابه، فقط ليدخلنا عوالم تقع بين الحاضر والماضي، على تخوم المستحيل وحدود العدم، متجاوزا بذلك الغياب الموحش وفاتحا إمكانات اللقاء من جديد. لقد أزعج صاحب الفسيفساء صاحب التفكيك في برزخه، باعثا له ببطاقة يدعوه فيها لكي يحلّ ضيفا، فهل سيلبي الشبح الدعوة ويحضر؟

استجاب جاك دريدا للدعوة وطرق باب كاتبنا سنة 2018 وهي سنة صدور الكتاب عن دائرة الثقافة، حكومة الشارقة بدولة الإمارات المتّحدة. عاد أجل إنه هنا لكنه لم يحضر لأنّ الحضور يقتضي وجود المادة المتمثلة في الجسم والجسم ضرب من الفناء والوفاء للغياب الأبدي. أما العودة فيمكنها أن تكون بطرق وأشكال مختلفة. إنّه هنا جالس على أريكة الكتابة وتُعرض أمامه على طاولة الضيافة، جل المعاني المتناقضة وأشكال المجاز واستراتيجيات البلاغة، التي استقاها

الكاتب من دريدا ليكتب عنه، أي كتب عنه بمصطلحاته وأسلوبه، وهو ما يُقرّ به أثناء حديثه عن طبيعة الكتاب:" هو استبصارات تتناثر وتتطاير لتعود من حين إلى حين في قوالب تحليلية لا تخلو من مباراة للمحاكاة، اقتفاء للأسلوب التفكيكي في مجاراته للهلوسة والمجاز والاستراتيجيات البلاغية لخطاب فلسفي غير قابل للتطويق." [11]من هذا القول نستشف أن المتعة أو الجمالية الكامنة في هذا الكتاب سببها الأوّل هو الاعتماد على الأسلوب البلاغي التفكيكي، فلا يخلو الكتاب من عبارات بلاغية مجازية تضيف رونقا خاصا، وتفتح أبواب العتمة دون أن تضيئها تماما، أما السبب الثاني فيكمن في هذا اللاتطويق، فالكاتب لم يضع نفسه في إطار محدد، ولم يتّبع خطة محددة يروم من خلالها تحديد التفكيك، وحصر ما لا يحصر في كتاب واحد، بل اكتفى بمعالجة القضايا التي تعنيه أو المهتم بها، إنّنا أمام كتاب غير مكتمل لا في مبناه ولا في معناه، بل ولا يروم للاكتمال ولم يجعل منه هدفا إطلاقا، وهذا ما جعل الكتاب يأخذ منحى دريديا.

لقد استضاف محمد بكاي جاك دريدا وقام بواجب الضيافة. نحن الآن أمام مستضيف Host والمتمثل في محمد بكاي، وضيف Guest والمتمثل في جاك دريدا، هذا الضيف Guest يتشاكل لغويا مع كلمة شبح Guost. وبالتالي مقولة الشبحية التي ستشكل لنا الكلمة المفتاح في فلسفة التفكيك وفي هذا الكتاب على وجه التحديد، إنها المدخل الذي ولج من خلاله الكاتب الصرح الديريدي. وهي مقولة مهمة لم تحظ بالدراسة والاعتناء من قبل الباحثين كما سبق وذكرنا. فقد اختار صاحب الفسيفساء لنفسه مدخلا جديدا يحلّل من خلاله التفكيك، هذا المجهول/المعلوم، ويقف على مفاهيمه ذات الطابع البيني/ الطيفي.

قلنا يحلّل ولم نستخدم مصطلحا آخر نزولا عند ما قام به الكاتب الذي قال في مقدمة كتابه: أنّه عبارة عن استبصارات تتناثر وتتطاير لتعود من حين إلى

حين في قوالب تحليلية. استخدامه للتحليل كوسيلة لقراءة دريدا جاء في صميم التفكيك، لقد حلّل ولم يُصدر أحكاما مطلقا، لأنّ الحكم يقتضي اليقين، بينما التحليل فيرتبط بما هو محتمل، إنّه مجرد احتمال، وكذلك التفكيك والفن أيضا اللذان يخرجان من اليقين إلى المحتمل.

إنّ استقبال صاحب الفسيفساء لصاحب التفكيك، واستضافته وبعثه من جديد في بداية الكتاب لم يكن عبثيا، بل جاء من أجل مخالفة ما يقوم به أغلب قراء دريدا عندما يخفون جاك خلف تفكيكه فلا نكاد نراه، لقد حاول بذلك تجاوز حجب دريدا وراء التفكيك، بل قرأ التفكيك من خلال دريدا.

تتمدّد وتتردد مقولة الشبحية على طول مسار الكتاب، إذ نجدها حاضرة في كل المفاهيم والقضايا المُتطرّق إليها، بدءا بتفكيك دريدا لمقولة الغرب وهو أوّل عنوان سيواجهنا في الكتاب بعد عودة الشبح، حيث قام دريدا بتفكيك الغرب بواسطة مفاهيم ابتكرها من بينها الشبح، كما ستحضر هذه المقولة أثناء حديث محمد بكاي عن مسألة الاختلاف والانتقال من الهويات إلى الغيريات، وما الغيرية إلا شبح متجلي في مرآة الذات.

لقد تناول الكاتب أثناء حديثه عن الاختلاف وتقويض المركزيات وهو ثاني عنوان في الكتاب– لأنّ الكتاب قسّم إلى مقالات ولكل مقالة عنوان، ولم يقسم إلى فصول– هويات دريدا المختلفة والمتعددة والتي جعلت منه طيفا حيث يقول:"ودريدا نفسه طيف يتعدّد بين هويات متمايزة وأصوليات متصادمة ومتصادقة فيما بينها، ويتردّد وراء أقنعة متخالفة، إذ هو: يهودي وعربي، فرنسي وجزائري، ولا يتخلى على واحدة من هذه الهويات المتغايرة فيما بينها."[12] هذا ما جعله ينادي بضرورة احترام الاخ(ت)لاف وعدم إقصاء الآخر.

سيرافقه الشبح أيضا أثناء معالجته لموضوع عري النص ومسألة الكتابة بعدّه للكلمات مسكنا للأشباح، إن لم تكن هي الشبح في حد ذاته. لأن الكتابة تحمل في طياتها غيابا؛ أي غياب الكاتب وحضور طيفه من خلال كلماته. ثم ستنتقل نفس المقولة مع مفهوم الاختلاف لفتح ملف النسوية، فالمرأة هي ذلك الآخر المقصي والمهمّش، وقد استفادت النسويات من مفاهيم دريدا عندما فكّكن المقولات العقلية والتأسيسات الذكورية للاكتفاء من تأدية دور الضحية أو الفريسة.

لم يتوقف الشبح عند هذا الحد بل راح أيضا يفرض نفسه في موضوع الفن والرسم من منظور فيلسوف الهوامش، إذ يقول محمد بكاي صاحب الفسيفساء:"الفن خيالي السمة ومجازي الصورة وشبحي البنية، لذلك يصعب تحديد هوية فن الرسم."[13].

بعد كل هذه المواضيع المتطرق إليها في مؤلَّف التفكيك وفسيفساء المعنى من اختلاف، وهوية وغيرية، ونسوية، والفن والكتابة، وفلسفة الأدب وأدبية الفلسفة سيأتي دور الترجمة كنوع من الضيافة، إذ يستضيف المؤلِّف مقالا لبيير زيما يحمل عنوان:" جمالية التفكيك من الرومانسية إلى نيتشه ودريدا " بنقله إلى العربية، بعد هذه الترجمة وفي ختام الكتاب سيعود صاحبه إلى الشبحية كمفهوم قائم بذاته وسيطرح سؤالا مهما: ما الشبح؟ ودون إجابة سيعلن أنّ هناك إنذارا قضائيا ينادي بلا جواب يُحال إلينا.

إذا كانت المقولة التي حركت هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته، وإن لم ينته، لم تُعرَّف بعد، فكيف سنعرف ما التفكيك وهو يتملّص ويتخلص من كل محاولات التعريف.

إنّ الكتاب متاهة ابتكرها صاحبها بطريقة فنية مستقاة من فيلسوف الهوامش، والهدف من ذلك قراءة دريدا وتحليل مفاهيمه البينية. فالتفكيك وفسيفساء

المعنى مجازفة حاول من خلالها الكاتب تجربة المستحيل، وحاولنا من خلالها نحن أيضا تجربة التجربة.

لم تبرز مقولة الشبحية في كتاب التفكيك وفسيفساء المعنى فقط، بل برزت قبل ذلك في كتابه أرخبيلات ما بعد الحداثة وفي أغلب دراساته حول التفكيك، وهي نفس المقولة التي يرى محمد بكاي بأنها تتجلى وبوضوح في تفكيك دريدا، الذي يبحث في الفواصل الوهمية والخيوط الشبحية؛ أي في المتقابلات والمتناقضات حيث يستعصي الفصل بين الحاضر والغائب، بين الذكوري والأنثوي والمثالي والواقعي؛ فكل محاولة للفصل تؤكد في نهايتها على الوصل والتّمفصل بين الأضداد[14]، تمفصل يجعل كل طرف يقتنع بنقيضه، يستقبله ويستضيفه بل وينسجم معه.

تتبع محمد بكاي لمقولة الشبحية في أعمال جاك دريدا وفلسفته، كانت بدايته من المقولة في حد ذاتها، لقد استدعى شبح دريدا ودعاه للحضور وللمثول في كتبه ودراساته، وحاول من خلال الكتابة أن يمنح لشبحية دريدا حضورا حبريا، يشهده الورق. إذا كان التفكيك جهاز كشف عن الأرشيفات المندسة في ثنايا النصوص بالضبط حيث يرقد اللاوعي ويمارس نشاطه، فإنّ محمد بكاي أيضا اعتمد على نفس الجهاز، فتغلغل للاوعي النصوص الدريدية وعمل على استنطاقها واستجوابها، حيث عالج مفهوم الكتابة وربطها بآلام دريدا وغربته الدائمة، وارتحل بنا من مفهوم إلى آخر ومن مقولة إلى أخرى، مقدما شروحات وتفسيرات تنطلق من المقولة نفسها لتصل إليها في نهاية المطاف.

7. خاتمة:

في الختام يمكننا القول بأنّ محمد بكاي تمكن من الاقتراب من التفكيك وملامسة أوتاره الحساسة، كما استطاع أن يقدم للقارئ العربي بصفة عامة

والمغاربي بصفة خاصة، زوايا جديدة يطل من خلالها على جوانب مغايرة، قد لا نجدها في بقية الدراسات المتعلقة بهذه الفلسفة العصية والمتمنعة. لقد غامر ولا يزال يغامر بدخول عوالم صعب الخروج منها، آخذا معه بيد المتلقي العربي والمغاربي المتلهف لاكتشاف المزيد، ولتذوق أشهى أطباق دريدا الغريبة والمختلفة.

لقد اعتمد محمد بكاي في دراسته للتفكيك وفي تأليفه حوله على مقولة الشبحية، التي عدّت النقطة التي انطلق منها وحاول الوصول إليها، فكانت تلك المقولة محورية في أعماله.

من التوصيات التي يمكن تقديمها في نهاية المطاف، ضرورة العناية بالجانب التطبيقي أكثر، والسعي إلى ترجمة المزيد من أعمال جاك دريدا إلى لغة الضاد، ترجمة تليق بالنص الدريدي الخارج عن المألوف. كما نقترح التوجه بالنقد إلى الدراسات التي عُنيت بالتفكيك في النقد المغاربي وممارسته، والاهتمام أكثر بتلك الدراسات والأبحاث المغاربية التي جعلت من التفكيك مادتها ووسيلتها.

5.المراجع

[1] ينظر: عبد الغني بارة، الهيرمنيوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، لبنان، 2008، ص 40.

[2] ينظر، عبد المنعم عجب الفيا، في نقد التفكيك، نصوص مختارة مع مقدمة نقدية شاملة منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، ط1، الجزائر، لبنان، 2015، ص9-11.

[3] ينظر، محمد شوقي الزين، جاك دريدا، ما الآن ماذا عن غد، الحدث التفكيك، الخطاب منشورات الاختلاف، دار الفارابي، ط1، الجزائر، لبنان، 2011، ص 28-30.

[4] ينظر، محمد شوقي الزين، الإزاحة والاحتمال، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، لبنان، 2008، ص196.

[5] ينظر: محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف الكلمة،ط1 المغرب، الجزائر، لبنان 2015 ص 205.

[6] ينظر، المرجع السابق، ص 140.

[7] ينظر، محمد شوقي الزين، الإزاحة والاحتمال، ص 7.

[8] ينظر: محمد بلعباسي، يوسف نقماري، استقبال التفكيكية في النقد المغاربي، مجلة التنوير، الجزائر، العدد8، ديسمبر2018، ص 68.

[9] ينظر: محمد بكاي، أرخبيلات ما بعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، دار الرافدين، opus، ط1، لبنان، كندا، 2017، ص 15.

[10] ينظر: محمد شوقي الزين، جاك دريدا، ما الأن ماذا عن غد، الحدث، التفكيك الخطاب، ص 11.

[11] محمد بكاي، التفكيك وفسيفساء المعنى، دار الثقافة، ط1، الإمارات، ص 11.

[12] المرجع نفسه، ص 36.

[13] المرجع نفسه، ص 69.

[14] ينظر: محمد بكاي، أرخبيلات ما بعد الحداثة، ص 16.